الفصل الرابع

التربية فى المجتمعات الحديثة البدائية

تسير الثقافة بخطى سريعة أكثر من أن يدركها كلها فرد واحد إلا أنها هشة بحيث يمكن تحولها كلها تقريباً خلال أجيال قليلة . وإذا حدث لسبب من الأسباب كالغزو الأجنبى أن عجز الشباب عن تلقى تراثهم الحضارى فان ثقافة آبائهم يصبح مصيرها الفناء[1] . وحقيقة أن للثقافة الصفات التى يمكن إحياؤها بنفس الوسيلة التى يحافظ عليها بها وهى التربية فما هى إذن الصفات العامة للتربية فى جميع الثقافات ؟ .

بعض الصفات العامة للتربية

يتضمن أغلب التعلم الإنسانى الواعى عمليات ثلاثا وهى : الاستماع ، والملاحظة والأداء . وتختلف بعض القطاعات فى تأكيدها على واحد أو آخر من هذه العمليات ، وفى المدى الذى نؤكد به واحداً أو آخر منها فى تعلم أمور معينة ، ويقرأ الأطفال فى التربية الغربية المعاصرة أكثر مما يلاحظون أو يستمعون . وإن كان التوازن قد اختل قليلا بسبب استخدام التلفزيون كوسيلة تعليمية ولأن قدراً كبيراً من التربية يعتمد على (التعلم بطريق الأداء) كما نجد المدارس الأمريكية تعتمد إلى حد كبير على التعلم عن طريق الأسئلة والإجابات وتشجع هذه الطريقة الطفل على التفكير الذاتى على شرط ألا تستخدم كوسيلة للمراجعة فحسب . أما الصينيون فانه من المتوقع أنهم يتعلمون غالباً عن طريق الملاحظة . ومن ناحية أخرى يتعلم أطفال قبائل (ببلاجا) قدراً عظيماً بأن يتولى البالغون تصويب أخطائهم ، فمثلا لو أشار طفل إلى شىء ما وأخطأ ، فان أى شخص بالغ سيصحح له خطأه[2] .

وتستخدم جميع الثقافات الثواب والعقاب لتشجيع التعلم وتقويم السلوك المعيب، ويتفاوت ما بين التفريط والتقدير إلى تقديم الجوائز ، أما العقاب فقد يكون بالتقريع والسخرية إلى تقييد الحرية والألم البدنى . وإذا ما بلغ الطفل تقل مكافأته بالتدريج إذا ما اتبع النظم . ويعاقب إذا لم يتبعها . إلا أننا مازلنا نحتاج لمعرفة القدر الذى يرضى الطفل من الثواب وإلى أى حد يجب أن يوقف ذلك الثواب على أمور قد تمكن منها ويحس بالإهانة لو كوفىء عليها[٣] .

ونلاحظ أن كل المجتمعات تمنع عن أطفالها بعض المعلومات الحرجة فتتمسك قبائل (شاجا) مثلا بتفوق الذكور بأن يقولوا للبنات إن الرجال لايتبرزون بينما تقول (الهوبى) لأطفالها إن راقصى (الكانشينا) ليسوا رجالا بل آلهة . وتتجه المجتمعات الحديثة إلى إبقاء الطفل جاهلا بالجنس وإن كان غالباً ما يلتقط أفكاراً عنه بالصدفة وغالباً من كبار الأطفال وقد يمارس هذه المعرفة بنفسه .

وتتجه جماعة رفاق المراهقة فى مختلف المجتمعات إلى فرض لون ثقافى لها ، ولا تختلف فى ذلك المجتمعات الصناعية الحديثة فى تشجيع تلك الجماعات لأعضائها لأن يراعوا المعايير الخلقية للكبار ولكن الأمر فى المجتمعات الأخيرة يصل إلى الثورة على الوالدين ويرجع ذلك لأنه فى الحالة الأخيرة نرى الأطفال فى هذه الثقافات لا يعتمدون اقتصاديا على الآباء فى اكتساب وضعهم الاجتماعى بل يكتسبون ذلك بأنفسهم كقاعدة .

وغالباً ما تسيطر الجماعة القوية فى ثقافة ما على تنظيم النظام التعليمى لتقوية مركزها . فنجد مثلا فى هذه البلاد أن الأعضاء البيض فى الطبقة الوسطى يديرون المدارس بما يسىء للطلبة الزنوج والمكسيكيين وأبناء العمال ، وتدار المدارس العامة فى انجلترا على رغم اتساع قاعدة التلاميذ فيها بواسطة

ولصالح الطبقات العليا . ويسيطر على التربية فى روسيا الحزب الشيوعى وفى إيرلندة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

ويختلف مركز المعلم الاجتماعى وفقاً لاحترام مجتمعه للمعرفة . وتقدر المجتمعات اليابانية والصينية وتبجل المعرفة وبالمثل المعلمين أكثر مما يفعل الأوربيون والأمريكيون ، وهى المجتمعات التى لا تحترم المعرفة بهذا القدر وإن كانت مجتمعاتهم تكافىء تطبيقاتها العملية . ولقد شكا العالم الإنجليزى روجر أشام الذى عاش فى القرن السادس عشر فى كتابه « ناظر المدرسة » من أن الارستقراطيين يدفعون مبالغ لعرسانهم أكثر مما يدفعون لمعلمى أبنائهم ، ونجد اليوم الرياضيين المحترفين والممثلين يؤجرون أجوراً أكثر مما يعطى لأساتذة الجامعة .

المقارنة بين المجتمعات البدائية والحديثة

قبل أن نعرف أوجه الاختلاف بين النظم التربوية الحديثة والبدائية نبدأ أولا بمعرفة الاختلاف بين هذه المجتمعات . وتتمثل النظرة الكلاسيكية عن مفهوم المجتمع البدائى من وجهة نظر روبرت روفيلد حول المجتمع الشعبى (ومجتمع الأهل) كنموذج مثالى يقترب من مجتمعات عديدة غير متحضرة (وتشمل الاسكيمو والفلاحين المكسيك[٤]) ومثل هذا المجتمع نراه متغيراً أو منعزلا ، وأمياً أو نصف أمى ومتجانسا ومستقلا تماماً ومتوافقا مع تضامن جماعى قوى ويوجد تقسيم بسيط للعمل . وأغلب السلوك فى هذه المجتمعات سلوك عائلى وتقليدى وجامد نسبياً ويتجه أفرادها للنظر داخل أنفسهم[٥] .

ويرى فلاسفة عصر التنور أن المجتمعات البدائية كانت بداية للإنسان فى حالة حياته الطبيعية قبل قيام الحكومة المدنية . أما علماء الإنسان فى القرن التاسع عشر فيرون أن هذه المجتمعات تعتبر أول نماذج للمؤسسات الحديثة .

لكن ما رأى علماء الإنسان المحدثين فيها ؟ تقول إنه من البداية كلما زاد تنوع المجتمعات موضوع الدراسة زاد احتمال اكتشافنا لعناصر عامة بينها . والذى قد يمكننا من التخطيط وربما ضبط السيطرة على طريق المستقبل نحو التنمية الثقافية والاجتماعية . ثم إن بساطة وتماسك المجتمعات البدائية عن المجتمعات الحديثة تمكننا أن نفهمها ببساطة تامة وبهذا فدراستها إنما هى مقدمة ملائمة للنظر فى الثقافات الأكثر تعقيداً . وأخيراً كلما كانت هذه المجتمعات بعيدة عن ثقافتنا فانه يمكننا دراستها دراسة موضوعية أكثر مما يمكننا دراسة مجتمعاتنا التى نعيش فيها .

ومما يدهش أن المجتمع البدائى مجتمع متجانس يشارك أغلب أفراده فى أقسى المعرفة والاهتمامات ويألفون ذات الأفكار والاتجاهات والأنشطة على مستوى المجتمع كله .

أما فى المجتمعات الصناعية الحديثة حيث التعقيد والتخصص وكثافة السكان ، فقد تراكم قدر عظيم من المعلومات بحيث يجهل كثير من الناس بوجود علوم مثل الفسيولوجيا العصبية أو علم السبرنيقا (مشكلات الضبط الذاتى) وقد عبر عن ذلك جولس هنرى حين قال (كلما ازدادت المعرفة فى أى ثقافة يميل جهل الأفراد إلى الزيادة إذ تقل قدرتهم على جمع كل المعلومات) . وتلاحظ هذه الخبرة بوجه خاص عند المدرسين فى المدارس ممن ينتظر أن يدرسوا عدة موضوعات[16] .

إن تعقد الثقافات المعاصرة ذاته يميل إلى جعلها أقل حساسية من المجتمعات البدائية بالنسبة لتأثير العواطف الجماهيرية ، فتبدو القبيلة البدائية لكثير من الغربيين كأنما هى فى طفولتها وذلك لسرعة تقلبها العاطفى . ومن أحد أسباب عدم التشابه الناجم عن المقارنة هو أن أعضاءها أقل اعتياداً من الغربيين على التفكير الانعكاسى . والسبب الآخر هو أن التجانسية ذاتها

فى الخلفيات ووجهات النظر عند رجال القبائل البدائية تشجع بردود أفعال مماثلة للمثيرات المتشابهة ، إلا أن الطفل العادى يتعرض فى الثقافة المتنوعة والشاملة مثل ثقافتنا لمجموعة من المؤثرات المتصارعة مثل الآباء والمدرسين والرفاق والتلفزيون .

وقد نتج عن ذلك — وإن كان فى ذلك بعض المبالغة — أن نموذجاً من نماذج العادات لم يرسخ بحيث يكبت بجدية ما ينشأ لدى الشباب من عادات جديدة . كما أن البالغ عضو فى جماعات عديدة مثل الأسرة . والشركة ، والكنيسة والحزب السياسى ، وكل منها له أغراضه وأساليبه السلوكية . وعلاوة على ذلك نؤمن ونشعر بالامتنان لوسائل الاتصال الجماهيرية إذ يدرك الفرد عن طريقها اهتمامات الجماعات الأخرى مثل النقابات العمالية واتحادات الآباء والمعلمين ... وغيرها . وأخيراً نذكر أن الفرد العصرى يقابل كل يوم بصفة مستمرة أعضاء جماعات أخرى حتى ندرك السبب فى أنه يختار المبدأ الذى يعجبه ويشك فى معتقداته أكثر مما يفعل رجل القبائل البدائية الذى تسيطر عليه أعراف مجتمعه وحده . ومن ناحية أخرى فقد أوضحت الحربان العالميتان أن ما تسمى مجتمعات متحضرة لم تسلم من العواطف الجماهيرية والهستيريا على السواء .

وتعتبر الأسرة فى المجتمعات الحديثة هى الوحدة أو النواة وتتألف من الزوجين وأطفالها . إلا أن تلك الوحدة فى أغلب المجتمعات البدائية هى الأسرة الممتدة أو جماعة الأقارب . وتتألف من أجيال عديدة يربطها خط الذكر مثلما نجد فى الصين التقليدية أو خط الأنثى مثلما فى النافاهو وتشترك جماعة الأقارب عموماً فى مكان واحد للسكن وتسكن كل أسرة صغيرة فى كوخ أو مسكن خاص بها .

ومن بين المعتقدات الحديثة أحد المعتقدات الأساسية ذات الأثر البعيد وهو الاعتقاد فى التقدم . فبالنسبة للرجل العصرى يعتبر المستقبل مفتوحاً

وإن كانت هناك بعض القيود على ذلك . ففى مجال العلم نجده يعتقد فى إمكان استخدامه لإخضاع الطبيعة . أما فحص العلاقات الإنسانية فيمكن تحسين أحوال البشرية جسمانياً وروحياً تحسناً بلا حدود .

أما الرجل البدائى ، من الناحية الأخرى ، فيؤمن أن نظام الأشياء لايتحول وأن الإنسان وبيئته يشكلان كلا لا ينفصل ، وأن الطبيعة يجب تدعيمها دون استغلالها . ويعتقد الهنود الأمريكيون على سبيل المثال ، أن صيد بعض الحيوانات يجعل الصياد والفريسة شريكين فى التعاون مع الطبيعة فى نشاط مقدس فالإنسان يؤدى الطقوس والحيوان يقدم اللحم[٧] .

ويوجد الفرد فى القبائل البدائية كعضو فى مجتمعه الذى يتشكل مع النظام الثابت للأشياء . ويعيش الفرد ويزدهر باتباع طرق المجتمع . ولا يوجد لدى بعض القبائل الهنود الوينتو أية فكرة عن تفرد الذات[٨] . وينعزل الإنسان العصرى اجتماعياً أكثر من البدائى . ومع نمو التحضر الذى يشجع على الحراك والتخصص ويضعف روابط القرابة ، ولا يرتبط الرجل العادى إلا بقليل جداً من جميع الجماعات فى مجتمعه كما أنه يفهم جزءاً ضئيلا من أنشطة ثقافته .

وبينما يشترك جميع أفراد المجتمع البدائى تقريباً فى نفس الافتراضات فانه من الممكن أن يختلف الناس فى مجتمع متقدم حول قضايا عميقة دون أن تتحطم وحدة الثقافة كلها ، على سبيل المثال . ربما تكون الحرب الأهلية قد مزقت المجتمع الأمريكى لكنها لم توجد الثقافة الأمريكية .

وبينما يسد المجتمع البدائى احتياجات معروفة وثابتة نسبياً نجد المجتمع الصناعى الحديث مضطرا لخلق احتياجات جديدة بصفة دائمة حتى يحافظ على حركته الاقتصادية . ولما كان هذا الاقتصاد يعيد عموماً تشكيل المنتجات القديمة ويصنع أخرى جديدة بأسرع مما يحتاج المستهلك فانه مضطر لخلق

نظام إعلانى كفء حتى يوجه الطلب متمشياً مع الإنتاج . ومن ناحية أخرى نجد أن العامل البدائى ينتج الأشياء المطلوبة عند طلبها حيث إن الطلب على منتجاته ثابت نسبياً ولا يحتاج للإعلان أو الموزعين . ولذلك نجد المجتمع البدائى مستقراً لأن احتياجات أفراده محدودة نسبياً ، أما المجتمع الحديث فغير مستقر وديناميكى بالضرورة حيث يفترض أن احتياجات أفراده غير محدودة[٩] .

ولا تضع المجتمعات الغربية الحديثة من الناحية النظرية حداً للملكية الإنسان المتراكمة (وإن كانت تفرض عليه ضرائب باهظة إذا ما تراكم لديه المال !) ومن هنا نجد سعيا لايهدأ من أجل الثروة . ويناقض ذلك التحديد المنظم فى المجتمعات البدائية لمقدار الملكية الفردية الخاصة . ويستخدم الناس طرقاً متنوعة ليخلصوا أنفسهم مما يزيد عن حاجتهم ثقافياً مثل المقايضة خلال الطقوس أو التوزيع على الأقارب أو الحرق فى الجنازات واستخدامه لإقامة الحفلات[١٠] .

ويتغلغل العمل فى حياة البدائى أكثر مما يتغلغل فى حياة العامل الحديث فالعمل لايربط أفراد القبيلة معاً خلال أداء الواجبات ذات المغزى الاجتماعى الواضح لهم جميعاً فحسب ، بل إنه يمكنهم كذلك من التعبير عن ذواتهم تعبيراً إبداعياً . فتشكيل الأوعية أو تزيين الرماح مما يستغرق فيها الرجل البدائى بعناية وحب وبغريزته للزخرفة وهو أمر لا يشغل بال العامل فى خط التجميع الحديث . فالعامل الصناعى الحديث يؤدى عموماً عملا روتينياً يحتاج لقليل من الذكاء والخيال والابتكار ويغرس فيه قليلا من الصفات القيمية المجتمعية خارج عمله . وينمو لديه قليل من الإحساس والولاء لزملائه العمال ويرجع ذلك أغلب ما يرجع إلى أن ما يؤدى من عمل إنتاجى لايشتركون فيه بل تعرضه عليهم المنظمة التى تستخدمهم . وفى المجتمع المعاصر نلاحظ الالتزام العاطفى والنفسى لطبقة المهنيين والمديرين بعملهم أما العامل العادى

فان جل شغله هو حياة أسرته وأصدقائه وفى بعض الأحيان القليلة يشغل بأمور تتعلق بنقابته العمالية .

ولما كان المجتمع البدائى يصدر أحكامه على كل شىء وفقاً لمبادىء موضوعة فانه يميل للتغير التدريجى ، ولهذا قد يبدو أى تحوير طفيف فى التقاليد — فى خطوات الرقص أو الزينة مثلا — وفقاً للرأى الغربى عادياً ويبدو تغيراً ثورياً فى نظر البدائى . وقد يحدث لثقافته اضطراب تام عند حدوث التغير المفاجىء السريع ربما بسبب كارثة طبيعية أو تدخل غربى ، ولكن هناك بعض الثقافات البدائية مثل المانوس فى غينيا الجديدة كانوا من المهارة بحيث تكيفوا مع الحضارة الغربية[11] ومن ناحية أخرى تتجاوب الثقافات المعقدة والمتقدمة بالضرورة وبطبيعتها للاختلافات والأمور الغريبة عنها ومن هنا يحدث التغير السريع .

المقارنة بين التربية الحديثة والتربية البدائية

يسهم الطفل البدائى بشكل فعال فى الحياة الاجتماعية بعكس الطفل العصرى ، إذ ينتظر منه منذ صغره أن يتحمل مسئوليات تتناسب مع قوته وتجربته وبخاصة قيامه بمساعدة أسرته لكسب معيشتها . فالصبيان على سبيل المثال يصيدون ويمارسون الألعاب البسيطة ، والفتيات يساعدن فى أعمال الحقل أو رعاية الصغار ، ولا يحتاج المجتمع البدائى لإنشاء منظمات مستغلة للتربية مثل المدارس[92] ، وذلك لأن المعرفة لديه أقل تخصصاً ، والمهارات المطلوب نقلها قليلة وجميع أساليب حياته واضحة أمام الجميع . ويستعاض عن ذلك بحصول الطفل على التراث الثقافى بملاحظة وتقليد البالغين فى أنشطتهم مل الطقوس والصيد والاحتفالات والزراعة والحصاد وينتج عن ذلك أن يقل أو ينعدم ابتعاد الصغار عن الكبار كما نشاهد بوضوح فى المجتمعات الصناعية الحديثة .

ومن أسباب هذا الابتعاد أو الاغتراب[١٣] عن الآخرين أن البالغ المعاصر فى إدراكه للواقع لا يعتمد كثيراً على تجربته المباشرة بل على كثير مما تمده به ثقافته أكثر مما يفعل البدائى . ومن الواضح يتراوح اعتماده على الثقافة وفقاً لمقدار وطبيعة التربية التى حصلها . إلا أن رجل الشارع اليوم يفترض حقائق كثيرة عن العالم لم يكن فى استطاعته أن يكتشفها بنفسه أبداً ولهذا يتعين على الصبى اليوم الذى يود الحصول على تكنولوجيا وآراء الكبار فى العالم أن لا يتخذ موقف أبناء الرجل البدائى . ولهذا نجده غريباً فى مجتمع البالغين .

وتشمل المصادر الرسمية للتربية والثقافات البدائية : الأسرة والأقارب وحفلات الانتساب (للتدشين) ولقد جاءت المدرسة مؤخراً فى تاريخ التربية ولم تزد إطلاقاً فى بعض الثقافات إلا أن ظروفاً متنوعة قد اقتضت إيجاد المدرسة مثل :

ا — تطور النظم الدينية والحاجة للتدريب على الكهنوت .

ب — النمو الداخلى والغزو الخارجى مما يتطلب إعداد مديرين مدنيين وعسكريين .

حـ — تقسيم العمل استدعى تعليم بعض الفنون الصناعية بينما كانت له ضرورة فى المجتمعات الصناعية لاحتياجها إلى تعليم أساسى كأساس لاكتساب المهارات المهنية .

د — الصراعات الاجتماعية الداخلية وتهديدها للقيم التقليدية والمعتقدات مما أدى لاستخدام التربية لتقبل التراث[١٤] . وينبغى أن تركز الدراسة الأنثروبولوجية للتربية الأمريكية التطبيقية على هذه الأسس الأربعة وأن تعتنى بعلم السياسة والقادة المدنيين (أو الموظفين) بدلا من عنايتها بالدين والكهنوت .

إلا أن المدرسة لاتتولى وحدها نشر الثقافة . إذ يعمل بالضرورة فى

مجال التربية الرسمية فى أمريكا اليوم الباحثون الاجتماعيون ، والمعالجون النفسيون والممرضات والعاملون فى أجهزة الترويح وغيرهم . ثم يلى ذلك مجموعة من المنظمات التى تقوم بالتربية المقصودة وإن كان ذلك بصفة غير رسمية أى أنها لم تنشأ بقصد التربية فحسب . وتشمل هذه التنظيمات الأسرة كأهم واحدة منها بالمعنى الكامل . وكذلك الكنيسة (أو المسجد) وجماعة الرفاق ووسائل الاتصال الجماهيرية وقد نضيف إليهم الورشة والطبقة الاجتماعية والتنظيمات التطوعية وخدمات القوات المسلحة لخدمة هؤلاء جميعاً وأثرهم التربوى على البالغين . وأخيراً هناك المناخ الفكرى الاجتماعى ككل الذى يمكن غالباً أن يكون طاغياً وإن لم يكن منظمة رسمية .

وتفرق التربية الحديثة بين الأطفال ووالديهم بينما نجد فى المجتمعات البدائية سعياً لربط التربية بين الأجيال سواء كانت التربية مهمة المدرس الأب أو الخال أو أحد كبار الأسرة ، وتكرس المدارس اليوم من ناحية أخرى جهودها لتنمية آمال وتحقيق آمال والديه فتجعل من أبناء العمال والكتبة أطباء ومحامين ورجال أعمال [١٥] .

ومن أهم العلاقات الواضحة بين التربية فى المجتمعات البدائية والمتقدمة هو التحول من احتياج الفرد ليتعلم شيئاً يتفق عليه كل فرد فى حاجته إلى إلى ما تسميه (مرجريت ميد) « رغبة بعض الأفراد فى تدريس شىء ما لاتوجد رغبة لدى أحد لمعرفته »[١٦] ويذهب الطفل البدائى إلى قريب له أو ربما خبير فى قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه عن نشاط معين مثل القنص وصيد الأسماك أو نصب الفخاخ ، ومدلول ذلك فى عادات القبيلة ، فهو لايتعلم لأن هناك اتفاقاً عاماً بضرورة معرفة بعض الأشياء . إنه يعلم نفسه لأنه يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلة فيرغب فى هذا التعليم . إنه يتعلم باختصار من أجل البقاء ، يعلم على سبيل المثال أى الطرق يسلكها ، وأى الثمار تؤكل وأيها يترك . وعندما يصحب الابن والده للصيد يتعلم قتل

الحيوانات تعلماً فعلياً . وتتعلم أخته رعاية الأسرة بمشاركة أمها واجباتها المنزلية .

ويرجع فتور الطفل الحديث نحو التربية إلى عجزه عن ربط ما يتعلمه من المدرسة بما يجب أن يعرفه ليعمل عملا منتجاً كى يمتع نفسه فى الحياة . بينما الطفل البدائى مرتبط دائماً ارتباطاً وثيقاً بنوع المهارة التى يمارسها البالغون ويتعلمها منهم ، بينما يعيش الطفل الحديث بشكل عام مادياً ونفسياً بعيداً عن المكاتب والمصانع التى سوف تستفيد مما تعلم من معرفة ومهارات . ولما كان عاجزاً عن أن يرى أى ارتباط عملى لما يتعلم فى المدرسة بالحياة فانه غالباً ما يصبح غير فعال وغير معتنى به . وتعتبر تلك اللامبالاة للتربية بحق أساس انتشار عدم الضبط فى المدارس الأمريكية . إذ لا يرى الأطفال قيمة مباشرة فيما يتعلمونه لذلك فليس لديهم التشوق للتعلم .

وهناك عوامل كثيرة تتصل بمفهوم الميول . إذ نلاحظ أن ميل الطفل البدائى إلى أشياء تتصل اتصالا واضحاً ووثيقاً به لم يعد ممكناً للتاميذ الحديث .

إن واجب التربية الآن هو إيقاظ حب الاستطلاع الفكرى والاهتمام بالمعرفة كجزء مرتبط بالتطبيق العملى . ويعنى ذلك أن نطلب من الطفل أن يتبع النظام وأن ينفصل وأن يمارس التفكير المباشر إذ أنها جميعاً مميزات الرجل المتحضر ، فلنحاول بشتى الوسائل أن ندخل النظام التلقائى الشكلى عند الطفل البدائى ، ولكن يجب ألا نتخيل أن النمو الخلقى والفكرى المطلوب من الرجل الحديث يمكن تحقيقه بسهولة ويسر .

ولا نجد فى المجتمع البدائى من يتخصص فى التدريس . فكبار السن يعلمون صغار أقاربهم إن كان ذلك فى حدود معينة ماعدا التمرين على الكهنوت حيث يختار لذلك بعض البالغين . هكذا يساهم القائمون بالتعليم مساهمة تامة فى الحياة الاجتماعية . وعندما يصبح القدر المطلوب معرفته

عظيما فى بعض الثقافات المتقدمة يظهر إلى الوجود المدرس المحترف والذى يتجه فى الغرب المعاصر للانفصال عن الحياة الاجتماعية العامة الصناعية والتجارية . ويحقق المزايا والمضار مثل بقية المواطنين لسيره فى طريق التخصص حيث يبلغ قدراً عظيما من المعرفة والدربة من ناحية لكن فى مجالات صعبة التطبيق من ناحية أخرى .

ومن العجيب أن يلام المدرسون فى أغلب الثقافات الغربية لأنهم (نظريون جداً) وكذلك (بعيدون عن الواقع) بينما تثبط همهم فى نفس الوقت أنشطة خارجية أخرى على أساس أنها تتداخل مع مهنتهم . بل إن مشاركتهم المباشرة فى السياسة من الأمور المستهجنة .

ويتشكك الأمريكيون بوجه خاص فى المدرسين الذين يعملون عملا إضافيا بعد مواعيدهم الرسمية وإن كانوا على يقين أن أغلبهم يعملون ذلك من أجل الحصول على دخل إضافى ليعولوا أسرهم .

ويمارس المدرسون البدائيون ما يعلمونه . فالصيادون يعلمون رمى الرمح والسهام والفلاحون يعلمون الزراعة وهكذا . أما أغلب ما يمارسه المدرس فى المجتمعات الحديثة فهو التدريس . فمدرس الاقتصاد فى المدرسة الثانوية مثلا لا يمكن أن يكون مديراً فى هيئة أو وكالة إعلانية . بينما يرتبط التدريس بالعمل عند المدرس البدائى إذ أنه يعلم ما يمارسه يوميا ولا شىء غير ذلك .

زد على ذلك أن المدرس البدائى ملتزم تماما ليس فقط أمام تلميذه الذى قد تربطه به صلة القرابة بل هو كذلك مسئول عن نتائج تدريسه . فاذا ما فشل فى توصيل مهاراته للتلميذ — الفاعلية — فانه يشعر غالبا بنتائج ذلك على الفور ، فاذا لم يتعلم الصبى الطريقة السليمة للصيد فان معلمه سيتعرض للجوع . أما المدرس الغربى فانه لا يتدخل فى أمر نجاح أو فشل تعليمه ؛ لذلك يفتقد هذا الحافز للحياة أو الموت حتى يقوم بعمله بكفاءة[١٧] .

ويتم التعليم والتعلم فى المجتمع البدائى بصورة سهلة لأن أداة التعليم فى متناول الفرد سواء كان ذلك رمحا أو محراثا أو قناعاً للاحتفال (إلا أن هناك فى عدد من المجتمعات البدائية حصيلة ضخمة من المعرفة السرية التى تعطى بحرص إذ يعتقد أنها تضمن بقاء ورخاء المجتمع) . ومن الناحية الأخرى يضطر المدرس الأمريكى لأن يشرح أشياء بعيدة تماماً فى الفضاء أو الزمن سواء بالنسبة له أو تلميذه . مثال ذلك : هاملت . والانشطار النووى وتجارة العبيد . فاذا ما قدم هذه المعرفة كتاريخ قديم فعليه أن يشرحها مرتبطة بالحياة المعاصرة .

ولا تستلزم التربية وقتاً طويلا لدى الاسكيمو مثلا وهو مجتمع بدائى جداً . إذ يتعلم الطفل عند الإسكيمو فى سن التاسعة من والديه اللغة واستعمال الأدوات والتنبؤ بالطقس . كما يكون قد اعتاد كذلك على بعض العلاقات الشخصية والأمور الدينية ويصبح أكثر مهارة فى الصيد ومعرفة بالطقس والبيئة كاما تقدم نحو سن البلوغ إلا أن تربيته الرسمية تكون قد انتهت بمعنى أنه قد تعلم كل ما يمكن أن يتعلمه مباشرة من البالغين [١٨] .

وتتسبب ضخامة المعرفة وتعقد المهارات اللازمة للحياة الثقافية فى طول الزمن اللازم للتربية . فالمجتمع العصرى يعلم أطفاله قدراً أكبر من المعارف عما فى المجتمع البدائى . ويستخدم أنواعاً من طرق التدريس ويقضى وقتاً أكبر فى التعليم الرسمى وإن كان الوقت المخصص لكل موضوع وقتاً قصيراً ، ويتعرض الطفل اليوم أكثر من نده البدائى لضغوط كبيرة من المدرسين ووالديه للتمكن من الموضوعات المخصصة لسنه وفى الوقت المخصص لها . وقد يقال من الناحية الرسمية أن كل طفل يلتزم بتعلم موضوع جديد عندما يكون مستعداً له ، ولكن الحقيقة أنه يحث باستمرار نحو الوصول إلى مستويات محددة ثقافياً بدلا من مستويات تناسب مزاجه ومواهبه ، وقد تكون ظاهرة « الإظلام العقلى » نتيجة لتحميل الطفل أكثر مما يحتمل .

أو كما يقول هنرى (تعطيل الآلة) واحداث (شلل فى السبورة) [١٩] .

ومن أسباب دراستنا للأساليب التربوية فى الثقافات البدائية هو أن يكون لدينا نظرة سليمة وناقدة لنظامنا التعليمى ومن الواضح صعوبة زرع أو نقل الأساليب البدائية إلى ثقافتنا الشاسعة المعقدة ، ثم نتوقع الحصول على نتائج منها ، إذ يدل ذلك على رغبتنا فى إبعادها عن السياق الوحيد الذى يعطى لها مدلولا مفهوماً . ويجب من ناحية أخرى أن يشجعنا ما أحرزه البدائيون من نجاح فى تصريف بعض أمور حياتهم التربوية كى نعالج مشاكلنا بنظرة وتأول عظيمين . وأشير بوجه خاص لمشكلة مثل إدماج الطفل فى مجتمع البالغين وإثارة تشوقه للتربية . وتشكل هاتان الناحيتان مع غيرهما موضوع الفصل التالى [٢٠] .